قراءة نقدية في رواية

مغامرات هاكلبري فن

تمهـــــيد:

في البداية يجب الاشادة بتمكن المؤلف العبقري من إدارة الأحداث بحرفية مذهلة واضفاء كل ماهو جدير بكتم الأنفاس دون الإضرار بالسياق الأساسي العام، وهذا يجعل القاريء يعيش علي مدار الرواية في جو عام من الإثارة والكوميديا الساخرة، ويجعل القارئ كأنما يري الأحداث علي شاشة سينما، وهذا هو ما تعودنا عليه من أحد آباء الأدب الأميركي بشكل عام والساخر بشكل خاص. ولكن هناك بعض النقاط المهمة التي لا يجب إغفال الحديث عنها: فمنها ماله علاقة بالأحداث والشخصيات، ومنها ماله علاقة بأفكار تتعلق بالمؤلف وغيرها من النقاط التي أثارتني أو لفتت نظر ي وانتباهي، وسوف أضعها موضع ترتيب حسب ماكان له الأسبقية في جذب انتباهي، وما رأيت أنه لابد من ذكره، ويمكن أن أبدأ كالآتي:-

أولا : - العناوين المطولة للفصل

من أول الأشياء - أو هو أول شيء لاحظته فعلا تسمية الفصول، فعندما فتحت الصفحة الأولي من الفصل الأول وجدت ثلاثة عناوين للفصل، ومن فوقها كلمة (الفصل الأول) فإذ بي بعد التغاضي عن هذه النقطة وقراءة الفصل الأول أجد تلك العناوين كأنها ملخص عام للفصل، وهو الأمر الذي لم أحبذه بالمرة، وأنا لا أعرف إن كان هذا الاسلوب من المؤلف أم من النظام الخاص بالترجمة، ولكنني لم أحبذها بأي شكل من الأشكال، فعلي الأقل كان يمكن كتابة رقم الفصل أو حتي عنوان واحد مختصر، وما استفزني بشدة التمادي في بعض الفصول، فالفصل الثامن يتعدي حوالي التسعة عناوين، وهو أمر- أعتقد- لزج جدا ويفسد الكثير من متعة القراءة ويلغي جزءًا كبيرًا من عامل التشويق.

ثانيًا : شخصية(هاك):

من أكثر الأشياء التي تمتع القارئ بكتابات مارك توين هي شخصياته وتركيبتها النفسية المثيرة، حيث إن النقاد قالوا إن تلك الشخصيات هي - في الواقع- حقيقية قابلها المؤلف في حياته الذاخرة هي الأخرى بالمغامرات، أو هى شخصيات لها خلفية في نفسية المؤلف، وأرى أن (توم سوير) و(هاكلبرى فن) من النوع الأخير؛ فكلاهما هذا الطفل الشقي المثير للمشاكل والمقحم نفسه في كل شيء، وإن كان هذا يجلب الوبال عليه، وتلك نفسها هي شخصية (توين) الصغير المضطهد ممن حوله وبعيدًا عن إمكانية اختيار المؤلف لأبطال رواياته؛ فهاك طفل في غاية الذكاء والفطنة والدهاء، أيضا لذلك أراهن أن أحدا لن يستطيع حصر كمية الكذب الموجودة في هذه الرواية علي لسانه، لكن من المهم أيضًا أنه لا يلجأ للحيلة إلا حينما يكون في ورطة حقيقية، والأهم من كل ذلك أنه طيب القلب سليم النية، ويتبدى لنا ذلك في مواقف عديدة: مثل موقفه مع الدوق والملك، ولنا معهما وقفة أخري وعلاقته الطيبة مع الزنجي الهارب.

أما ذكاؤه فيتجلى في مواقف أخرى، ويتجلي بشدة في الخطة العبقرية التي وضعها للهروب من أبيه السكير الذي لم يكن يأبه إلا لما يسكره ويذهب بعقله، فيهمل أي شيء آخر حتي ابنه، وكان بذلك الدافع الأساسي لهروب (هاك) حيث تبدأ المتعة في الرواية، وتبدأ رحلته بالقارب، ويتبدى تأثير شخصية (توم سوير) في (هاك) أثناء مغامرته في مواقف عديدة، مثل موقف إنقاذ الرجل المهدد من العصابة، ثم طيبة قلبه مرة أخرى، فينقذ العصابة نفسها، ولكن الفارق الجوهري هنا بين(توم)و(هاك) هو أن

(هاك) عفوي تلقائي في تعامله مع الأمور، وبحثه عن الحلول المنطقية لمشاكله المعقدة، أما (تـوم) فهـو صاحب منطق معكوس وعقل ابتكاري، ولكنه معقد، فهو يبحث عن أصعب الحلـول لأبسـط المشـكلات، ويعمل بمبدأ (أين أذنك يا حجا) فهو لا يبحث عن الحل إنما يبحث عن المشكلة، وحينما يقابل توم هاك فـي نهاية الرواية بالصدفة التي أدهشتني في الواقع وأضافت لمسة كوميدية علي النهاية، فحينما ننظر إلى الخطة التي وضعها (توم) لتحرير جيم تجد أنه كان من الممكن الاستغناء عنها بمجرد رفع قائم السرير، وهو أمر لا يدل فقط على حمق الفتى، إنما يدل على شغفه بالمغامرة ومتعة الإثارة ،ونهاية القصة تحتوي علـى مأسـاة مفيدة، والمأساة هي موت الآنسة واطسون والفائدة هي تحرير (جيم) من العبودية، وتلك الفصـول الأخيـرة كانت من الأشياء التي أمتعتني بحق في الرواية.

ثالثاً : جو الرواية العام وعلاقة (هاك) و (جيم)

من الواضح أن أحداث الرواية تدور قبل الحرب الأهلية الأمريكية، وفي إطار من الجهل وانتشـار الخرافات وتفشي الرق والتخلف مما كان له تأثير ثري للرواية كما سنرى، وتلك هي الرسـالة الإصـلاحية الاجتماعية من خلال تلك الرواية كعادة المؤلف، وبما أن (هاك) لم يحصل على هذا القدر من التعليم فكـان لبيئة الخرافات المحيطة به تأثيرها عليه، ولذلك حينما ننظر إلى علاقة (هاك) بـ (جـيم) نجـد أن كليهمـا هارب، بل كليهما كان في بيت واحد هو بيت الآنسة واطسون، وكليهما على قدر من الجهل والإيمان بالسحر، ولو أن (جيم) عنده إيمان أعمق بالشعوذة والخزعبلات مثل حادث جلد الثعبان وغيره ، ولكنه فـي النهايـة زنجي وفيٌّ مخلص لصداقته ولعائلته، ومن أكثر المحادثات تأثيرًا على القارئ تلك المحادثة التي يفصح فيهـا (جيم) عن أسراره العائلية، وعن ابنته الصماء، وهو حديث في غاية التراجيدية، ويدل على إخلاص (جـيم) لعائلته ورغبته في العودة، وهي من النقاط التي أضفت طابع الجدية على الرواية .

وبعد أن أنهيت أهم ما جذبني بالنسبة للشخصيات والسياق العام ،فلا بد من ذكر بعض اللمحات المذهلة التـي أثارت عجبي في بعض الأحيان ، ودعتني للتفكير بعمق في مرات أخرى .

رابعًا : لمحات عبقرية

مما يشدني في معظم الروايات تلك اللمحات والدروس المختبئة بين السطور، حيث يظهر ويتجلـى فيها عبقرية واحترافية المؤلف وأهدافه من وراء الرواية ،وفي تلك الرواية لنا عدة وقفات في غاية الأهميـة وتدعو إلى التفكير والتأمل الجدي على الرغم من إضفاء المؤلف لطابع الكوميديا عليها، فآراء (مارك تـوين) –كما نعلم– دائمًا صريحة بشكل صادم على الرغم من أنه كان يقول دائمًا إنه يحتفظ بآرائه القاسية لنفسـه، وإنه كان حينما يكتب رواية أو أي كتاب ،كان يكتب نسختين ،نسخة ينشرها والأخرى يحتفظ بهـا فـي درج مكتبه ولا يطلع عليها أحد، ومن ضمن تلك المواقف الممتعة في هذه الرواية والوقفات التي يجـب أن نقـف عندها ، حينما حل (هاك) ضيفًا على عائلة (جرانجفورت)، تدور الأحداث لإخبار القارئ بموضـوع الثـأر القديم بين عائلتي (جرانجفورت) و(شبردسون) مما يجعل القارئ المصري يدرك أن تلك العادة المقيتة ليست ولم تكن فقط مزمنة في صعيد المحروسة، وليس هذا فحسب بل بنفس الآلية ونفس الطريقة وهو الثأر الممتـد إلى ما لا نهاية، وهو شيء عجيب للغاية ويدل على أن التخلف العلمي وانتشار الجهل هي البيئـة المناسـبة لظهور مثل هذه العادات الغبية التي ليس لها من سبب منطقي أو عقلاني، ولقد وقفت عند تلك النقطة وتعمقت في التفكير فيها وخصوصاً حينما هرب فتى عائلة (شبردسون) مع فتاة (جرانجفورت) .. هل هـذه الحبكـة الدرامية قديمة إلى هذا الحد؟ ! إنها نفسها التي نراها في كل الأعمال التي تتحدث عن الثأر وفي أفلامنا فـي السينما المصرية، ليس هذا فحسب بل في أعمال أجنبية أخرى ، لقد تطرق المؤلف إلى هذه الفكرة منذ حوالي

قرنين من الزمان عام (1884) وهو ما رأيته كخبرة عميقة للكاتب ونضج نقدي فذ وإحاطة موضوعية بأحوال المجتمع الأمريكي في ذلك الحين .

ليست تلك بالطبع هي اللمحة الوحيدة التي أردت الإشارة إليها ، هناك أيضًا موقفان لا زلت لم أتحدث عنهما: أولهما هو قتل صاحب الحانوت (شربيرن) لذلك الرجل المخمور الذي كان يتحرش به وبمنطقة عمله، فما لبث الأول أن أطلق النار فأرداه قتيلاً، فتجمهر أهل المدينة حول منزل (شربيرن) مطالبين بحق القتيل، فما كان من (شربيرن) إلا أن خرج لتلك الجمهرة وحدق فيهم ملياً ونطق على مسامعهم ببعض كلمات التهديد، فتفرق الجمع لا يلوى أحدهم على شيء. عبقرية الموقف هنا تكمن في موقف الجمهور، ففي ثانية واحدة ثاروا وهاجوا وماجوا والتفوا حول أقواهم شخصيةً، والذي أقنعهم بصحة ما يفعلون، وفي الثانية الأخرى كانوا يتفرقون كسرب نمل بطشت به قدم ساهية، ففي البداية لم يتوقف أحدهم ولم يسأل أحدهم قائدهم هذا عما سيفعلونه حقا، وفى النهاية لم يثبتوا على موقفهم أو على الأقل يثبت قائدهم نفسه بل كان هو أول المغادرين، تلك هي سهولة التأثير على الجمهور الجاهل ضعيف الشخصية المغيب فكرياً، وعلينا أن نتتبع تاريخ الشعوب سنجد الموقف يتكرر بحذافيره مع تغيير الملابسات والأهمية.

أما اللمحة التي استبقيتها للختام هي موقف استمر للفصول الأخيرة، فبعد تحطم القارب والعائمة، وبعد ملاقاة (هاك) و (جيم) ثانية، حيث ركب معهما هذان المحتالان اللذان ادَّعيا أنهما ملك ودوق، وهو موقف في غاية السخرية والكوميديا السوداء، حيث يتضح من الأحداث أنهما ليسا مجرد محتالين، وإنما محتالان محترفان متنقلان يجمعان قوتهما من التجوال على المدن، وجمع ما يمكنهما جمعه بالنصب، ولذلك كانا يهرولان ناحية القارب في أول لقاء لهما مع (هاك) حيث يكتشف أهل كل مدينة خدعتهم في النهاية، وفي هذا الموقف بالذات تتبدى سخرية (مارك توين) المريرة التي اعتدناها منه ومكوث هذين المحتالين تلك الفترة الطويلة مع (هاك) و(جيم) زاد الرواية متعة، وأضاف إلى جرعة الكوميديا في الرواية، فلم يفتأ هذا اللصان أن خططا خطة كبيرة، وهي انتحال شخصية أخوي (بيتر)، واستطاعا أن يحتالا على أهل البيت، ومثَّلا دورهما ببراعة، وأقنعا عائلة الميت بهويتهما المزيفة لفترة وجيزة ، إلا أن طيبة (هاك) عادت وتغلبت مرة أخرى، وأنبه ضميره على مساعدته لهذين النصابين ، فسرق النقود خلسة وأعادها لأصحابها اليتامى.

أما عن نهاية الرواية فهي ذروة المتعة، وعلى الرغم من عدم الاعتياد على النهايات السعيدة مع (توين) إلا أن نهايتا (توم سوير) و(مغامرات هاكلبري فن) جاءت في قمة السعادة، ونهاية ما طمح (هاك) إليه قد تحقق ، فها هو (جيم) يفصح عن مصرع أبي (هاك) وها هم يعلمون بوفاة الآنسة واطسون ليصبح (جيم) حرًا أخيرًا، وها هو شمل الصديقين المشاغبين يجتمع مرة أخرى، وتنتهي الرواية أحسن نهاية ممكنة، تلك كانت أهم النقاط التي أردت الإشارة إليها، أما الكتاب ككل وبشكل عام فهو تحفة أدبية نادرة وتراث فني لن تنساه ذاكرة الأدب .